مساهمة أبي العباس أحمد المقري
في خدمة العلوم الإسلامية

الدكتور محمد زرمان

جامعة باتنة

مقدمة

يعد أبو العباس أحمد المقري التلمساني (986 ــ 1041 هـ) الموافق لـ (1578 ــ 1631م) إحدى الشخصيات العلمية الجليلة التي ظهرت بالجزائر خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، حيث أهلته مواهبه المتعددة، وذكاؤه الوقاد، وحافظته العجيبة لأن يرتقي سلم المجد، ويترك بصماته الواضحة في الحياة الأدبية والعلمية لعصره، وأن يخلد ذكره بين العلماء سواء في مشرق البلاد الإسلامية أو مغربها، يشهد له بذلك علماء هذه الأقطار وتلك جميعا. وكان نبوغه المتميز خلال العهد العثماني ــ الذي يعتبر عند معظم المؤرخين والدارسين من العهود الفقيرة ثقافيا في الجزائر ــ نقطة مضيئة في تاريخ الثقافة الجزائرية، وغرة لامعة في جبينها.

فقد درج المؤرخون على تسمية الفترة التي ظهر فيها المقري بفترة الاحتضار التي تميزت بنضوب الإبداع، وتمكن الجمود والتقليد من الحياة الفكرية، وشهد العصر ــ بالإضافة إلى ذلك ــ كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية والخارجية، فعلى صعيد العالم الإسلامي حصل التحول السياسي الهام الذي تمثل في انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى اسطنبول، ثم مجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر.

وعلى الصعيد الخارجي، شهد المقري تدفق بقايا الأندلسيين المسلمين على بلدان المغرب العربي بعد أن أصدر فيليب الثالث ملك إسبانيا قراره النهائي عام 1613م بطرد المسلمين نهائيا من إسبانيا،[1] وما تبع ذلك من غارات متكررة على سواحل المغرب العربي لمطاردة الفارين واحتلال بعض الثغور الهامة.

وكانت تلمسان التي شهدت نهضة علمية وفكرية مزدهرة أيام الزيانيين قد فقدت نشاطها الثقافي والسياسي، ودخلت تحت حكم الأتراك العثمانيين، ولم يبق منها سوى أثاره من علم لأولين. وقد شاءت الأقدار أن يجد المقري ـــ في هذا الظرف ـــ عمه العلامة سعيد بن أحمد المقري ليحتضن موهبته، ويرعاها بعلومه الغزيرة، وطول باعه فيها، حيث لفت نظره ما حبى الله به ابن أخيه من حافظة عجيبة وذكاء نادر فبذل له ما حوى صدره، ودفع إليه بكتب الأوائل ودواوينهم، ولما رأى أنه استوعب ذلك كله وهمته مازالت تطلب المزيد، دفعه إلى الرحلة إلى المغرب الأقصى حيث وجد ما يشفي غليله ويرضي نهمه في مدارسه ومكتباته ومجالس علمائه فظهر ـــ في وسطهم ـــ نبوغه وهو في مقتبل العمر، وأثار إعجاب من خالطوه وعاشروه وبهر أساتذة فاس وطلبتها ـــ في أول زيارة لها ـــ بقوة عارضته وحضور بديهته وكثرة حفظه حتى كتب المؤرخ أحمد بن القاضي رسالة إلى عمه يشكره فيها على إتحاف فاس بفتى نابغة مثل أحمد المقري وضمنها قطعة شعرية منها:

أرسلت للغرب القصي بـــدرة¤¤¤¤ قد أبهرت وغلت لها الأسوام

جَمَعَ العلوم على حداثة سنـــه¤¤¤¤ قد بـــارك الله بـــــه العـــلام

1- مكي، د، الطاهر أحمد. "المقري التلمساني" مجلة الأصالة. س4. ع 26. جويلية ـأوت 1975. ص 217.

أَكْرِمْ به مـــن عـــالم عَـــلاَّمـــة¤¤¤¤ جمع العلا وزكت بـــه الأحلام

فَجُزِيتَ خيرا يا سعيد عن الورى¤¤¤¤ بابن الأخ العلامـــة الصمصام

ضاءت بكم يا مَقّرِيُّ سما العـــلا¤¤¤¤ وعلت بكم بين الـــورى أقوام[1]

ومنذ ذلك الحين، ظل يرتقي في سلم المجد إلى أن طبقت شهرته الآفاق.

وقد اكتسب المقري شهرته عند غالب المتعلمين وبعض المثقفين من عبقريته الأدبية، وقريحته الشعرية، وموهبته النقدية التي تجلت بشكل واضح في موسوعته الأندلسية ذات الصيت الواسع (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) والتي تعد عمدة المنقبين عن آثار الأندلس في نواحي التاريخ والجغرافيا والأدب والعلوم. إلا أن الحقيقة تتجاوز ذلك إذ تؤكد الدراسات التي تناولت سيرة المقري وآثاره أنه لم يكن أديبا فقط، بل كان شخصية علمية فذة تعددت مواهبها، وتنوعت نشاطاتها، وكانت آخذة من كل علم بطرف. فهو أديب، ومؤرخ، وفقيه، ومتصوف ومتكلم، وله مشاركة واسعة في علوم القرآن والحديث.

وإن إطلالة سريعة على سيرته تؤكد أن الأدب لم يكن سوى جانبا صغيرا من الجوانب الكثيرة التي ميزت شخصيته، وأن شهرته في العلوم الشرعية التي أثارت إعجاب من عرفوه من العلماء وطلبة العلم سواء في المغرب أو المشرق هي التي بوأته تلك المكانة السامية بينهم، وما تقلده لمناصب الإمامة والخطابة والإفتاء بجامع القرويين بفاس لسنين عديدة <<وهي خطط لا تسند إلا للراسخين في العلم والتقوى>>[2]، وتصدره للتدريس في أمهات الجوامع الإسلامية في المغرب ومصر والحجاز والشام

1- ابن منصور، عبد الوهاب. أعلام المغرب العربي. المطبعة الملكية. الرباط. 1410 هـ. 1990 م. ج 5. ص 348.

2- المرجع نفسه. ج5. ص 351 .

سوى دليل على علو كعبه في العلوم الإسلامية وتضلعه فيها. وفيما يلي محاولة لإبراز بعض مساهماته في خدمة العلوم الإسلامية.

الحديث:

تبوأ علم الحديث ومصطلحه مكانة سامية بين العلوم في المغرب الكبير، وقد أقبل عليه المغاربة إقبالا منقطع النظير، وخصوه بفضل عناية واهتمام، حيث انتشرت بينهم كتب الصحاح الستة، غير أن صحيح البخاري الذي دخل بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري[1] قد حظي بما لم يحظ به غيره. فقد تعلق به المغاربة: <<وأحبوه واهتبلوا به، وأقبلوا عليه منذ وصوله إليهم فعنوا به أعظم عناية، وأحلوه بعد كتاب الله المقام السامي... وحفظوه ودرسوه وكتبوا حوله الشروح والتعاليق، واختصروه، وبحثوا في مشكلاته وألفاظه، ووضعوا له التكملات، وبحثوا تراجمه، وعرفوا برجاله وإسناده، وأنشأوا حوله الافتتاحيات والختمات>>[2].

وكان الجزائريون حريصين أثناء أسفارهم وحجهم على طلب علم الحديث، والتتلمذ على أكابر العلماء فيه، فكانوا يقصدون المغرب وتونس ومصر والحجاز لروايته، ثم يقومون بنشره في حلقات العلم التي كانت تعقد بالجوامع الكبيرة، وقد انتزع صحيح البخاري ــ كما أسلفنا ــ الاهتمام الأكبر والمكانة العظيمة حتى: <<كاد ينافس المصحف في كثرة الاستعمـــال>> [3].

وفي هذا الجو، تلقى المقري علم الحديث عن عمه سعيد بن أحمد المقري، فروى عنه الكتب الستة بسنده إلى القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي بأسانيده

1- الكتاني، د.يوسف. مدرسة الإمام البخاري في المغرب. دار لسان العرب. بيروت. ج1. ص4.

2- الكتاني، د. يوسف. مدرسة الإمام البخاري في المغرب. ج 1. ص 4

3- سعد الله، د. أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. ش .و .ن .ت .الجزائر. 1981. ج2 .ص 27 .

المذكورة في كتابه <<الشفا في التعريف بحق المصطفى>>، كما كان يرويها أيضا عن جملة من علماء المغرب أمثال محمد القصار القيسي، وأحمد بن القاضي المكناسي، وأبي القاسم بن أبي نعيم الغساني، وأحمد بابا التنبكتي السوداني، وأحمد التادلي الصومعي، وعن جملة من علماء المشرق كذلك أمثال علي الأجهوري، وعبد الرؤوف المناوي، ونجم الدين محمد الغزي[1] وغيرهم.

أما صحيح البخاري فقد خصه بما كان يستحقه من الاهتمام الذي عرف عن علماء عصره، فقرأه على عمه سبع مرات. وقد أسعفته ذاكرته القوية، وحافظته العجيبة، فاستوعب ما تلقى من الحديث، وصار حجة بالغة في حفظه، وضبط طرق رواياته، ومعرفة رجال الأسانيد، ثم تصدر لتدريسه وقد استجمع له أدواته، وجمع إلى ذلك جودة القريحة، وصفاء الذهن، وقوة البديهة، وحسن الإلقاء وفصاحة اللسان، فكانت دروسه في الحديث مشهورة مقصودة.

ويروي كتاب سيرته أنه دَرَّسَ الحديث في معظم الحواضر العلمية التي حل بها، حيث كانت له حلقاته الحديثية بفاس التي نال فيها شهرة واسعة، وأقبل عليه علماؤها وطلبتها.

وعندما رحل إلى المشرق وحط الرحال بمصر التف حوله جماعة من طلبة العلم في الأزهر الشريف فأخذ يملي عليهم الحديث حتى بهر الحاضرين بقوة حفظه وبراعة إلقائه، قال تلميذه عبد الباقي الحنبلي: <<ولما دخل رجب افتتح البخاري، فأتى بما هو أعجب وكان حافظا أديبا>>[2].

1- الكتاني، عبد الحي. فهرس الفهارس والأثبات. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط2. 1982. ج2. ص 575.

2- المرجع نفسه. ج2. ص 574.

وخلال زياراته المتكررة إلى الحجاز، قصد المدينة المنورة سبع مرات، وكان في كل مرة يجلس عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ويملي الحديث. وأثناء رحلته التي قادته إلى دمشق، عرف له أهلها فضله وعلمه وعلو منزلته، فأحلوه مقاما كريما، و أفسحوا له مكانا تحت قبة النسر في الجامع الأموي بدمشق يملي فيه صحيح البخاري بعد صلاة الصبح، وقد استقطب هذا الدرس جموع العلماء والطلبة والأعيان، فظل إقبالهم يزداد عليه، وأعدادهم تكثر يوما بعد يوم، مما اضطر المقري للخروج إلى صحن الجامع، وكان يوم ختم البخاري يوما مشهودا بدمشق، صوره المحبي تصويرا دقيقا في قوله: <<وكان يوم ختمه حافلا جدا، اجتمع فيه الألوف من الناس، وعلت الأصوات بالبكاء فنقلت حلقة الدرس إلى وسط الصحن، إلى الباب الذي يوضع فيه العلم النبوي في الجمعات من رجب وشعبان ورمضان، وأتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه وتكلم بكلام العقائد والحديث لم يسمع نظيره قط، وتكلم على ترجمة البخاري ... وكانت الجلسة من طلوع الشمس إلى قرب الظهر، ثم ختم الدرس بأبيات قالها حين وداع المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونزل على الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار الأربعاء سابع وعشرين رمضان سنة سبع وثلاثين وألف، و لم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة>>[1].

وإلى جانب تضلعه في الحديث وشهرته في روايته وإملائه، فقد وضع المقري جملة من التآليف في السنة النبوية الشريفة منها:

1 ــ فتح المتعال في مدح النعال:

1- المحبي، أبو عبد الله. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. المطبعة الوهابية القاهرة. 1248هـ. ج1. ص305.

جمع فيه الروايات الموجودة في مثال النعل النبوي المحمدي، وقد شرع في تحريره غرة رمضان وأتمه يوم الخامس عشر منه بالمدينة المنورة[1]. توجد منه نسخ مخطوطة عديدة في مختلف المكتبات العربية والأوروبية، طبع سنة 1334 هـ بحيدر آباد بالهند. وقد جعل في خاتمته رجزا سماه <<رجز في النعال الشريفة>> ثم أفرده في نسخة وبعث بها إلى الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي فانتشرت في المغرب.[2]

2 ــ النفحات العنبرية في وصف نعال خير البرية:

ألفه بمصر وهو عبارة عن رسالة نثرية تتخللها مقطوعات شعرية في وصف ومدح نعال الرسول صلى الله عليه وسلم، توجد منها نسخ مخطوطة وموزعة على عدة مكتبات.

3 ــ أزهار الكمامة في أخبار العمامة ونبذة من ملابس المخصوص بالإسراء والإمامة:

وهي عبارة عن مجلد يحتوي على 185 ورقة ذكر فيه المقري ألبسة الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصفها ومدحها لا سيما عمامته. وقد ذكر أنه ألفها قرب رأس النبي عليه الصلاة والسلام عند قبره الشريف: <<كان تصنيف كتاب العمامة تجاه الرأس الشريف لمناسبة باهرة>> [3].

ولخص المقري هذا الكتاب في أرجوزة من ثلاثمائة وخمسة أبيات سماها <<زبدة أزهار الكمامة>>، وخص بنسخة منها محمد بن أبي بكر الدلائي، وأشار إلى ذلك في كتابه إليه <<وقد ختمت كتاب العمامة برجز اشتمل على زبدته، وقد

1- عبد الكريم، محمد. المقري وكتابه نفح الطيب. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. ص275.

2- حجي، محمد. الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. 1988. ص119 .

3 - ابن منصور، عبد الوهاب. أعلام المغرب العربي. ج 5. ص 362.

وجهته إليكم صحبة هذا المكتوب، وهو مكتوب بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام>>[1].

4 ــ الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين:

وهو عبارة عن أرجوزة في أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وهي مفقودة، ذكرها المحبي في خلاصة الأثر، ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية، وإسماعيل البغدادي في هدية العارفين.

علم التوحيد:

علم الكلام أو علم التوحيد كما يفضل المغاربة تسميته من بين العلوم الشرعية التي اهتموا بها، وأكثروا من التأليف فيها. والمغاربة ــ في أغلبيتهم الساحقة ــ على مذهب الإمام مالك في الفقه، وعلى المذهب الأشعري في العقيدة.

وقد دخل مذهب الأشاعرة إلى المغرب على يد تلاميذ الباقلاني (ت 403 هـ) الذي كان مالكي المذهب حيث: <<قصده أهل إفريقية في رحلاتهم ليأخذوا منه الفقه المالكي فبدأوا يأخذون منه الطريقة الأشعرية في العقيدة>>[2]. ثم انتشر على يد تلاميذ أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ) وبخاصة أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي (ت 543 هـ) ومحمد بن عبد الله بن تومرت (ت 524 هـ)[3]: <<لقد آمن المغاربة بالمدرسة السنية الأشعرية منهجا ومادة ووقفوا عندها لم يتجاوزوا حدودها

1- المرجع نفسه، ج 5، ص 363

2- النجار، د، عبد المجيد. فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب. دار الغرب الإسلامي. بيروت .ط1. 1992. ص43.

3- المرجع نفسه، ص33.

ورسومها، واحترموا جهود سابقيهم من رواد هذه المدرسة، وتلقوا عنهم في حب وإخلاص>>[1].

ويعد أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي معلما بارزا من معالم تطور علم التوحيد بالمغرب. وقد لقيت مؤلفاته إقبالا واسعا، وانتشارا لا نظير له، ليس في المغرب فقط، وإنما في المشرق أيضا.

وعندما فتح المقري عينيه على الدنيا كانت مؤلفات السنوسي في التوحيد تسيطر سيطرة تامة على الدارسين لهذا العلم وظلت كذلك طيلة العهد العثماني[2]. وقد أخذ المقري علم التوحيد عن عمه الذي كان متضلعا فيه، فتمكن منه وبرع هو أيضا فيه، ثم وسع في هذا المضمار مداركه بالمغرب الأقصى، واستكمل معارفه حتى صارت له فيه قدم راسخة فأبدع فيه تدريسا وتأليفا.

وقد شهد له معاصروه بالبراعة في عرض العقائد والتوفيق في شرحها، والتميز في طريقة إلقائها مما يدل على فهم عميق وتمكن قوي من المادة، وإحاطة تامة بها. وممن نوه به في هذا المجال تلميذه عبد الباقي الحنبلي الذي وصف مجلسه الغاص بالطلبة في الأزهر وهم مقبلون عليه في إعجاب ودهشة كبيرين: <<دخلت مصر سنة 28 فوجدته في صحن الجامع الأزهر يقرئ العقائد، وله مجلس عظيم، فلم يستنكر عليه ما كان يورده من الأعاجيب لأن العقائد فن أهل المغرب>>[3]، وذكر المحبي أن المقري تكلم ـــ أثناء ختمه لصحيح البخاري في دمشق ـــ بكلام في العقائد لم يسمع نظيره

1- السنوسي، أبو عبد الله. شرح أم البراهين في علم الكلام. تحقيق وتعليق: مصطفى محمد الغماري. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989. ص7.

2- سعد، الله، د. أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص97.

3- الكتاني، عبد الحي. فهرس الفهارس والأثبات. ج2. ص574.

أبدا[1]. أما في مجال التأليف، فقد ترك المقري مجموعة من المصنفات في علم التوحيد منها:

1 ــ إتحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى:

شرح فيه العقيدة الصغرى للسنوسي والتي تعرف بأم البراهين. وهذا الكتاب ما يزال مخطوطا، وتوجد نسخ عديدة منه بخزانات المغرب الأقصى.

2 ــ إتحاف المغرم المغرى في تكميل شرح الصغرى:

وهو عبارة عن حاشية على الشرح الذي وضعه للسنوسية الصغرى.

3 ــ إضاءة الدُّجُنَّة في عقائد أهل السنة:

وهي أرجوزة في حوالي خمسمائة بيت، سَلِسَةُ النظم، حسنة المساق، تناول فيها أصول الدين وقضايا التوحيد. بدأ نظمها عام 1029 هـ بالحجاز وأكملها بعد رجوعه إلى مصر، وقد وضعها تلبية لطلب بعض تلاميذه كما أشار إلى ذلك بنفسه في قوله:

فرام مني أهل بعض الفـــن¤¤¤¤نظمي لها بحكم حســـن الظن

ولست للذي انتحى بأهل ¤¤¤¤ لأنـــني ذو خـــطأ وجهـــل

فازداد حثه علـــي ونـــما ¤¤¤¤وقال لي اجعل مثل هذا مغنما[2]

وقد لقيت هذه الأرجوزة استحسانا كبيرا من العلماء والطلبة على السواء، فأقبلوا عليها ينسخونها ويحفظونها ويدرسونها، وتناقلها الناس حتى وصلت أصقاعا بعيدة في العالم الإسلامي، ونسخ منها في حياته ما يزيد عن ألفي نسخة، منه مائتان

1- المحبي، خلاصة الأثر. ج1. ص 305.

2- عبد الكريم ،محمد. المقري وكتابه نفح الطيب. ص297 .

عليها خَطُهُ [1]. وأصبحت تنافس عقيدة السنوسي في الأهمية[2]، وقام صاحبها بتدريسها في مختلف البلاد التي حل بها كمكة ومصر ودمشق وذلك ما عناه في قوله:

وإنني كنت نظمت فيه [3] ¤¤¤¤ لطالب عقيـــــــدة تكفيه

سميتها إضاءة الدُّجُـــنَّهْ ¤¤¤¤ وقد رجوت أن تكون جُنَّهْ

وبعد أن أقرأتها بمصـــر ¤¤¤¤ ومكة بعضا من أهل العصر

درستها لما دخلت الشاما ¤¤¤¤ بجامع في الحســـن لا يُسَامَى[4]

كما طلب منه بعضهم الإذن في شرحها أمثال محمد بن المختار بن الأعمش العلوي الشنقيطي، وسمى شرحه: <<فتوحات ذي الرحمة والمنة في شرح إضاءة الدجنة>> وأوضح أن الدافع الذي حمله على شرحها كون المقري قد جعلها: <<في نظم عجيب وأسلوب غريب، ونفخ فيها ما في المطولات بأواخر لفظ وأحسن ترتيب>> [5]. وممن شرحها أيضا محمد بن أحمد الشنقيطي الملقب بالداه، وعبد القادر بن محمد بن سالم المجلس الصحراوي[6].

توجد منها نسخ مخطوطة كثيرة في عدد من الأقطار الإسلامية والأوروبية، وقد طبعت بالقاهرة سنة 1304 هـــ بهامش شرح العقيدة السنوسية للشيخ عليش[7].

1- المرجع نفسه، ص296 .

2- سعد الله، د، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي .ج2 .ص 103 .

3- يقصد علم التوحيد.

4- المقري، أحمد بن محمد .نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج3 .ص181.

5- سعد الله، د، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص104.

6- بن منصور، عبد الوهاب. أعلام المغرب العربي. ج5. ص363.

7- المرجع نفسه، ص363.

الفقه:

كان للبيئة العلمية التي نشأ فيها المقري فضل كبير فـــي استيعابه الفقه وتفوقه فيه، حيث تتلمذ على يد عمه أبي عثمان سعيد بن أحمد المقري الذي تقلد الخطابة في مجلس تلمسان الأعظم لمدة خمس وأربعين سنة، وجلس للفتوى لمدة ستين سنة، وكان له في الفقه وأصوله باع طويل.

وإلى جانب هذا البحر الزاخر من العلم الذي أجراه عمه بين يديه ومكنه منه، أسعفته حافظته القوية وذكاؤه اللامع في استحضار أبواب الفقه ونوازله. وقد ظهر نبوغه الفقهي في وقت مبكر جدا، حينما حل بفاس وهو شاب غض في مقتبل العمر، وحضر مجلس الشيخ علي بن عمران السلاسي بجامع القرويين، وناقشه في بعض المسائل الفقهية التي أشكلت عليه: <<وهو من هو يومئذ رسوخا في الفقه وتضلعا فيه، فاعترف له السلاسي وأنصفه، ومن يومها طار صيته كل مطار>> [1].

وفي مدينة فاس تجرد لطلب المزيد من العلم الذي كانت تزخر به مجالسها وخزانات كتبها وأندية فقهائها وعلمائها، كما استفاد من زيارته لمراكش استفادة جمة، وعاد من رحلته محملا بالكتب النفيسة المفقودة في تلمسان: <<وهب لي الركراكي حفظه الله حواشي اللقاني على توضيح الإمام خليل بن إسحاق المالكي رحمه الله، وتلك الحواشي لم يرها أهل تلمسان قـــط، وقد قدمت معها بعدة كتب غرائب، جمعت من الفنون نظيما ونثيرا>> [2].

1- بن منصور، عبد الوهاب. أعلام المغرب العربي. ج5. ص348.

2- المقري، أحمد بن محمد. روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لاقيتهم من أعلام الحضرتين مراكش وفاس. تقديم وتصحيح: عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية. الرباط. 1960. ص315.

وفي زيارته الثانية لفاس، انخرط في سلك التعليم فأجاد وأفاد حتى: <<تألق نجمه، وعرف فضله، وصار مجلسه بجامع القرويين مجلسا مفضلا عند طلاب العلم وعشاق الأدب، وأقبل العلماء والأدباء على سماع أحاديثه وقراءة كتبه، وتنافسوا في نسخها، وطلب الكثير منهم إجازته والتمسوا الرواية عنه>>[1].

ولعل هذه المنزلة العلمية الجليلة التي بلغها بنبوغه وعبقريته وكده واجتهاده هي التي دفعت السلطان السعدي إلى تقليده الإفتاء والإمامة والخطابة بجامع القرويين خلفا للفقيه الهواري، مع ما كان لجامع القرويين آنذاك من منزلة علمية رفيعة. تضاهي باقي الجامعات الإسلامية الذائعة الصيت، وقد مكث في هذا المنصب خمسة أعوام وبضعة شهور قبل أن يشد الرحال إلى المشرق هروبا من الفتن السياسية والقلاقل التي كانت تمزق المغرب الأقصى.

أما في مجال التأليف، فقد وضع المقري كتاب <<قطف المهتصر في شرح المختصر>>، وهو شرح لمختصر الشيخ خليل بن إسحاق المصري في الفقه المالكي على عادة فقهاء عصره الذين درجوا ــ أثناء العهد العثماني وقبله ــ على الاستناد إلى مختصر خليل في إنتاجهم الفقهي وفي تدريسهم أيضا، ويأتي بعده مختصر ابن الحاجب ثم رسالة أبي زيد القيرواني.

وهذا الكتاب مفقود ذكره المحبي في خلاصة الأثر في جملة مؤلفاته، وكذلك فعل محمد مخلوف في شجرة النور وإسماعيل البغدادي في هدية العارفين.

وله إلى جانب ذلك رسالة صغيرة سماها <<إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس، الواردة من الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر بركة الزمن وبقية

1- بن منصور عبد الوهاب. أعلام المغرب العربي. ج5. ص351.

الناس>>، أجاب فيه عن أسئلة مختلفة من مهمات الأصول والفروع، وجهها إلى شيخه أبي بكر الدلائي شيخ الزاوية الدلائية عندما كان مقيما بمصر: <<وقد أدرج سليمان الحوات نص هذه الأجوبة في كتابه <<البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية>>، وذكر أنها لما بلغت الشيخ الدلائي سر بها سرور من نال وطره وبلغ مناه[1].

كما ترك المقري رسالة في حكم الدخان، وهي مسألة شغلت فقهاء عصره وأدلى فيها كل واحد منهم برأيه، بين محرم للدخان تحريما شديدا قارنا إياه بالخمر، وبين متساهل فيه، وسماها <<أجوبة في اجتناب الدخان>> توجد منها نسخة مخطوطة بالخزانة الحسينية بالرباط تحت رقم 7559.

التصوف:

لقد عاش المقري في مرحلة تاريخية تميزت بانتشار الفكر الصوفي انتشارا واسعا، وطغيان نزعته على الحياة العلمية والعامة، وتأثر جميع شرائح المجتمع به تأثرا عميقا، ابتداء من العلماء كالفقهاء والمؤرخين والنحاة الذين أقبلوا على الانتماء إلى إحدى الطرق الصوفية المعروفة وأخذ الورد والسبحة والخرقة، وانتهاء إلى عامة الشعب الذين استسلموا لهذه النزعة وغدوا نهبا مشاعا للدراويش والمشعوذين.

و لم يكن المقري ليشذ عن هذا الوضع فهو ابن بيئته ونتاج عصره، لذلك رأيناه يساير ذلك التيار الذي طبع وقته، ويتأثر به فيبدو ذلك في تعظيمه للصوفية، واعتقاد الكرامات في الأولياء والصالحين، والتوسط بالأموات في الدعاء.

1- بن منصور، عبد الوهاب. أعلام المغرب العربي. ج5. ص364.

كما اقتدى بأسلافه في الانتماء إلى الطريقة الشاذلية أسوة بجده الخامس عبد الرحمن المقري الذي كان تلميذا بارزا وخادما مطيعا لأبي مدين شعيب (ت) وجده أبي عبد الله أحمد المقري (ت 759 هـ) وعمه سعيد المقري الذي لبس الخرقة من يد شيخه حاجي الوهراني.[1]

أما أحمد المقري فقد صافحه شيخه أبو العباس أحمد بن أبي القاسم التادلي بمراكش أثناء رحلته الأولى إلى المغرب الأقصى: <<وصافحني التادلي ـ رضي الله عنه ـ وشابكني كما صافحه وشابكه الخروبي وغيره بالسند المتقدم إلى الإمام زروق ... وآذن لي ـ رضي الله عنه ـ في لبس الخرقة من طريق سيدي عبد القادر، وسيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي أبي مدين رضي الله عنهم، وأفاض علينا من أنوارهم>>.[2]

وتبدو ميوله الصوفية واضحة في كتاباته حينما يعرض للحديث عن العلماء والأولياء إذ كان: <<محبا للأولياء والصالحين، مصدقا لكراماتهم، أحياء أو أمواتا، زوارا لمقاماتهم وأضرحتهم، داعيا هنا متوسلا هناك، كثير الترضي عليهم عند ذكرهم، مفضلا مذهبهم على سائر المذاهب>>.

وهو يذكر في مؤلفاته شغفه الكبير بزيارة الأضرحة والقبور إيمانا منه ببركة أصحابها، وقدرتهم على جلب الخير ودفع الضر إذا توسطوا له. فعندما قصد فاس بالمغرب الأقصى زار قبر أبي العباس أحمد بن جعفر السبتي الخزرجي مرارا: <<وقبر

1- المديوني، أبو عبد الله محمد بن مريم. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص104.

2- المقري، أحمد بن محمد. روضة الآس. ص 302.

أبي العباس الخزرجي مشهور مقصود بإجابة الدعاء، وقد زرته مرارا كثيرة فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف وهو ترياق مجرب>>[1].

كما زار ضريح أحمد بن عاشر في سلا: <<وقد زرته ـــ ولله الحمد ـــ عند توجهي إلى حضرة مراكش سنة ألف وتسعمئة والناس يشدون الرحال إليه من أقطار المغرب>>[2]. وعرج على ضريح الصوفي الكبير عبد السلام بن مشيش بتطاوين الذي أخبر أن زيارته قد شرحت صدره وأزالت عنه الخطب:

وكنت عند قبره رأيت ¤¤¤ ما يقتضي بلوغ ما نويت

نفعنا الله بأوليائـــــه ¤¤¤ أهل المقامات وأصفيائـــه[3]

وعندما حل بدمشق توجه إلى زيارة قبر الشيخ الصوفي محي الدين بن عربي، ويروي الشيخ (موز الدمشقي) أنه صحب المقري في هذه الزيارة: <<وكان خروجنا بعد صلاة الصبح، ووصلنا إلى المزارة عند طلوع الشمس، فلما جلسنا عنده قال لي الشيخ المقري: أني ابتدأت عند خروجنا إلى الزيارة ختمة القرآن لروح هذا الشيخ وقد ختمتها الآن، وهذا من غريب ما يحكى في هذه الأزمنة>>[4].

والأمثلة على التصديق بهذه الكرامات والاعتقاد بوقوعها كثيرة عند المقري، منها ما ذكر من أمثال النعل الشريف (وهو رسم لنعال النبي صلى الله عليه وسلم كان يحمله معه) قد نجاه هو ومن معه مرتين: مرة في البحر الأبيض المتوسط عندما غادر المغرب قاصدا الجزائر فهاج بهم البحر وتعالت أمواجه ويئس الركاب من النجاة، فسلم

1- المقري، أحمد بن محمد . نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج1. ص127.

2- المرجع نفسه.ج7. ص275.

3- عبد الكريم، محمد .المقري وكتابه نفح الطيب. ص191.

4- العياشي، عبد الله. ماء الموائد أو الرحلة العياشية. طبعة حجرية بفاس. 1316هـ.ج2. ص86.

المقري لربان السفينة مثال النعل الشريفة ليتوسل بها إلى الله فنجوا، ومرة في البحر الأحمر عندما كان قاصدا جدة فاضطرب البحر وأغرق سبع مراكب وخرجت لهم نار من جوف البحر فأيقن الجميع بالهلاك، غير أن المقري أشار بالمثال الشريف ودعا الله أن يبعث إليهم بريح لينة فاستجاب دعاءهم[1].

فهذه الإشارات وغيرها تدل على مدى تأثر العصر بالنزعة الصوفية، وسيطرتها التامة على النفوس وانسياق المقري مع تيارها. وهو إن لم يكن له مؤلفات صوفية إلا أن روح التصوف كانت سارية في مؤلفاته وبخاصة أشعاره في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والتي اكتست طابعا روحيا يقربها من ابتهالات الصوفية وتوسلاتهم.

التفسير:

لقد استعان المقري بثقافته الموسوعية وكثرة محفوظاته في مختلف الفنون والعلوم ليدلي بدلوه في علم التفسير. فقد كانت له في هذا الميدان نظرات موفقة وتأويلات صائبة، كما كانت له حلقات علمية يدرس فيها التفسير، سواء في المجالس التي كان يعقدها في المغرب الأقصى حيث أمضى أربعة عشر عاما من عمره فيها مدرسا وإماما ومفتيا، أو تلك التي كان يعقدها في مختلف الحواضر والأمصار التي حط فيها رحاله أثناء تنقلاته الكثيرة.

فقد ذكر عبد الكريم الفكون في كتابه <<منشور الهداية>> أن أحمد المقري قد انتصب للتدريس بالجامع الأعظم بمدينة بالجزائر ـــ بعدما غادر المغرب لاضطراب أحواله ـــ وأن من جملة ما درس هناك التفسير: <<وبعد فساد بلد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها وتداعت للخراب، ارتحل عنها ... فنزل بدار الجزائر على فقهائها

1- عبد الكريم، محمد. المقري وكتابه نفح الطيب .ص 190_202.

وعلمائها، وتصدى للتدريس بـــها وأَقْرَأَ التفسير...>>[1]. وهـــذا النص يدل على أن المقري كانت له سابق تجربة وخبرة في تدريس التفسير، وأنه كان على جانب كبير من الإجادة فيه، وإلا لما قدمه فقهاء الجزائر وعلمائها ليفيدهم من بحر علمه في هذا المجال.

وكان التفسير أيضا هو السبب في شهرته بمصر، حيث عثر في أوائل أيامه بها على تفسير نادر في سوق كتبها فسر فيه صاحبه سورة النور وأورد فيها مسألة فقهية غريبة فحفظه المقري بما تهيأ له من ذكاء وقاد وذاكرة عجيبة، وصادف أن سأل سائل عن تلك القضية في إحدى المجالس التي اجتمع فيها عدد كبير من علماء الأزهر وفقهائه، فاستغرب جميعهم السؤال إلا أن المقري أجاب عليه بما حوته ذاكرته، ولما سئل عن سنده في ذلك الجواب أحال على كتاب التفسير المجهول، فلما أوتي به تبين لمن حضر علمه الغزير وحافظته القوية وعلو كعبه[2]، وأصبحت هـــذه القصة بمثابة نقطة انطلاق شهرته فـــي مصر ومقدرته العلمية وهـــذا مـــا يؤكده وصف المحبي له بأنه: <<كان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزا باهرا في الأدب والمحاضرات>>[3].

وإلى جانب إبداعه في تدريس التفسير، ترك المقري كتاب <<إعراب القرآن>> وهو في تفسير سور القرآن وإعرابها، لا يزال مخطوطا وتوجد نسخة منه

1- الفكون، عبد الكريم. منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية. تقديم وتحقيق وتعليق: د. أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1987. ص223.

2- القادري، محمد بن الطيب. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. تحقيق: محمد حجي. وأحمد التوفيق . دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. الرباط. 1977. ج1. ص295.

3- المحبي، خلاصة الأثر. ج1. ص 302.

بالمكتبة الوطنية بباريس، وقد اطلع عليه محمد بن عبد الكريم الذي أشار إلى أن المقري قد كاد يبلغ درجة الاجتهاد في فهم مدلول صريح القرآن، وإدراك مغزى مؤوله من خلال ما بدا من طول باعه في هذا الكتاب[1]، ونقل عنه فقرة موجزة في تفسير قوله تعالى: <<من الجنة والناس>>: <<قوله من الجنة والناس: عطف على الوسواس، أي من شر الوسواس والناس، ولا يجوز عطف على الجنة لأن الناس لا يوسوسون في صدور الناس، إنما يوسوس الجن. فلما استحال المعنى حملته على العطف على الوسواس>>.[2]

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذه المخطوطة الثمينة سيكشف لنا عن منهج المقري في التفسير، ويعطينا صورة واضحة عن إسهاماته الجادة في هذا العلم.

وبالإضافة إلى هذا الكتاب، ذكر العباس بن إبراهيم أن له "مقصورة في سور القرآن" وأنها من جملة ما أخذه عنه أحمد البوسعيدي بفاس[3]، غير أنها مفقودة وليس بإمكاننا تقييم ما جاء فيها.

1- عبد الكريم ، محمد. المقري وكتابه نفح الطيب. ص290.

2- المرجع نفسه. ص291.

3- حجي، محمد. الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي. ص118.

خاتمـــة

إن هذه الإشارات السريعة التي ألمحنا خلالها إلى مشاركة المقري في العلوم الإسلامية تبين لنا المكانة الخاصة التي تبوأها في هذا المضمار. ولو أن الدراسات قد التفتت إلى هذا الجانب الهام من حياة المقري وأعماله لعثرنا على كنوز ثمينة من إسهاماته وإبداعاته، ودوره في نشر هذه العلوم في عصره.

غير أن كتابه الموسوعي " نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب " قد طغى على مجمل إنتاجه في حقول المعرفة الأخرى، بدليل ما ناله من اهتمام وعناية، وما حظي به من تحقيقات ودراسات متنوعة، بينما ظلت كثير من كتبه وبخاصة ما تعلق منها بالعلوم الإسلامية مخطوطة، مهملة في المكتبات الأوروبية والعربية، تنتظر من ينتشلها من عالم النسيان، ويكشف للباحثين والمهتمين هذه الناحية المشرقة من حياته العلمية.